تطور الشعر العربي

التجديد بين البارودي وشوقي

للأستاذ حنفي داود

مضى الشعر حقبة طويلة من الزمن مهملا، كان في أكثره لا يمثل ما وضع له: من تمثيل للشعور وتصوير لخلجات النفس وأحداث الحياة. فكان إبان عصري المماليك والاتراك أشبه بالحرفة المتبذلة منه إلى الفن الجميل الذي تهواه النفوس وتحن اليه الافئدة؛ ومن أجل ذلك كانت هذه الفترة من حياة الشعر العربي تعد فترة ركود أو كمون إن صح هذا التعبير.

وإذا كان الأدب عامة والشعر خاصة يمثل التفاعل الوجداني بين الشاعر من ناحية وبين البيئة والزمن الذين يعيش فيهما من ناحية أخرى، فان العملية الفنية التي يصدر عنهـا الشعر كانت مقطوعة الدائرة، مهلهلة الأوصال، ذلك لأن البيئة الأدبية في عصري المماليك والأتراك لم تكن من القوة المهيئة للفن في شيء فلم يكن حكام هذا الزمان ورجال الشأن في ذلك الوقت يشجعون الشعراء أو يحمدون ما يقدمونه إليهم من قصائد يجودونها. ولعل ذلك لا يقتصر على عجزهم عن إدراك معاني الشعر، وزهدهم عن التمدح به، فقد كانت اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة تحتل الصدارة في هذه البيئات. كما كان الشعراء — وهم الذين يمثلون الطرف الثاني من حلقة التفاعل — محدودي الثقافة بسبب ضعف الحياة العلمية إغلاق أبوابها في وجوههم، وزهد المماليك والأتراك فيها واستهانتهم بها.

وفي أوائل القرن التاسع عشر انسلخ العالم الشرقي من هذه الحقبة المظلمة واستقبل عصرا جديدا هو عصر محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة، فأعاد للبيئة الشعرية في مصر خاصة والشرق العربي

ضفاف النيل. وموارد الغدران والأودية، وعن الأطيار الساجعة فوق أغصانها؛ والظباء النافرة في قنن الجبال والغابات. ولنكتف هنا بمثال واحد يصور لنا أوائل الخريف وكيف استقبله الناس والأنعام وكيف اهتزت به الأرض وربت. سأل أحد الجنداء من أهل البطانة شاعرهم الحردلو عن أخبار مسقط رأسه وملعب صباه. وكان الحردلو شاعراً بدويا مجيدا وله في الأدب القومي شأن أي شأن «وسنفرده ببحث خاص إن شاء الله» فأجاب صاحبه قائلا:

الخبر الجا قالوا البطانة أرشت
وسارية تجود حتى الصباح ما أنفشت
هاج فحل امصر يصور والمنايح بشت
ديت أم ساق على حدب الجميل انمشت

فالشاعر يجيب صاحبه بإن الخبر الذي جاء والنبأ الذي وصل اليه خبر جميل طيب. قالوا البطانة أرشت، والبطانة المكان الواقع بين النيل الأزرق والاتبرا وفيه مراع واسعة، وكانت فيه قديماً مملكة مروى الشهيرة في التاريخ. والآن ينزله أثناء الخريف عرب الشكرية والبطاحين والضباينة والجران. والبطانة مشهورة بالخصب.

والشاعر جاءه الخبر أنها أرشت ونزلت فيها الأمطار. وأن سحابة مملوءة بالماء جادت عليها طوال الليل وطلع عليها الصباح ومع ذلك فلا يزال فيها المطر الغزير (وسارية تجود حتى الصباح ما انفشت) فسرت الحياة في الأرض، ومشى البشر في نفوس الحيوانات، وبدأت علائم الخصب ونزعة الانتاج في الأرض والحيوان سواء بسواء؛ فاهتاج الجمل للقاح (هاج فحل أمصر يصور ودرت أخلاف النوق بفيوض من اللبن الحبيب (والمنايح كشت) وكست الأعشاب أديم الأرض، حتى لتتمشى البكرة التي عبر عنها الشاعر ببنت أم ساق وأم ساق كناية عن الناقة وهي تكنية جميلة جداً. هذه البكرة تتمشى من الأعشاب المحيطة بالمنازل. ومن عادة الفصلان ألا تتوغل في المزارع والأعشاب، وتكتفي بأن ترعى قريبا من المنزل، فاذا كان العشب القريب يكفي لمشائها فمعنى هذا أن الخصب قد عم، وهذا ما أراده الشاعر

ولو قيض لهذا الأدب القومي السوداني من يدرسه دراسة وافية، ويقف عند مواطن الحسن فيه لجاء الأدب واللغة بخير كثير

(يتبع)

علي العماري
مبعوث الأزهر بالسودان

عامة ما كان لها من قوة ومجد ، ووصل ما بين الحياة الأدبية قديما وبين الحياة فى عصره ، ومن هنا رأب هذا الصدع وسد هذا الفراغ حيث شجع العلماء بالاكثار من البعوث العلمية والأدبية إلى الممالك الأوربية كما شجع طلبة العلم : بفتح المدارس ومساعدتهم على مواصلة تعليمهم . وبهذا استطاع محمد على أن يجدد الحياة العقلية ، وبالتالى أن يخلق أجواء جديدة من الحياة العلمية والأدبية فى الشرق العربى . فنال الشعر ما نال غيره من تطور ، وكان أن ظهر بعد ذلك — صدى لهذا الإصلاح — جماعة من الشعراء كان البارودى أنبههم ذكرا وأعظمهم شأنا وأحسنهم فى عالم الشعر وتاريخه نسجا وقدرا .

واختلف النقاد حول مجدد الشعر فى هذا العصر فقال جماعة : إنه البارودى بلا منازع . وقال آخرون : إن الشعر لم ينل حظه من التجديد إلا عند شوقى . واختلفت الأقوال فى ذلك وتبلبلت أحكام النقاد ، وكان مرد هذا التبابل اختلافهم فى مقاييس الحكم . والمنهج العلمى لا يعنى بالتجديد الأبتر ، بل يريد بالتجديد فى الشعر كل ما يمسه من تصوير يتناول أنواعه ، وأغراض تتناول موضوعاته ، وأساليب تعالج ألفاظه وأخيلته ، وما يأتى تباعا لذلك من عواطف صادقة ، ومشاعر حساسة .

نحن نؤمن أن للبارودى وشوقى آثارا تجديدية فى الشعر العربى لا يمكن إنكارها ، ويكفيها قوة أن يعرضها المنهج العلمى فى صورة تجريبية لا تقبل الجدل . ونحن فى هذا نعرض الرجلين فى ضوء المنهج العلمى لنحكم لها أو عليهما مقررين ما لكل من آثار فى التجديد .

فقد استفاد البارودى من الشعر الجاهلى فاطلع على تراثه وقرأ فى تضاعيف كتبه فأحيا ما لحقه من موات وما أصابه من بوار وكساد فى السوق الأدبية . وقد كان الشعر العربى فى هذا العصر مقبوراً مهجوراً لا تحيط به إلا بطون الكتب ، وكان الشعراء فى ذلك العصر لا يعنون بدراسة مسائله أو الانتهال من بحاره الزاخرة ومنابعه الأولى . فجاء البارودى واستطاع بثاقب فكره وثقافته العريضة أن يبعث الشعر العربى القديم من مرقده وأن يخرجه من مكمنه وبذلك أعاد للشعر سابق صولته وأهدى إليه عنفوانه وقوته . ويكفينا دليلا على ذلك ما نقرؤه فى ديوانه من قصائد فى الفخر ومقطوعات فى الرثاء ونتف فى الغزل وشذرات فى الوصف استطاع بها أن يكون أكبر مقلد للقدماء وأعظم مجود لأغراضهم بعد أن مضت عليهم عصور سحيقة وأزمان طويلة .

ويكفى أن تقرأ له هذه الأبيات فى الفخر لتعرف كيف أوفى على القدماء فى فخرياته حتى كاد يبز عمرو بن كلثوم ، ومنها :

وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو والمغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

فأنت ترى كيف جارى البارودى القدماء . ومع ذلك فلم يكن فى تقليده مقلدا أو معييا ، ذلك لأن الصيغة التقليدية كانت قوية فى نفسه ، فامتدت عدوى التقليد من طريقة التفنن فى الأعراض إلى عناصر القصيدة نفسها . فتراه يقتفى آثار الجاهليين — فى صناعة الشعر فهو يبدأ قصائده بالغزل كما يبدءونها وينطلق فى عناصر القصيدة ولا ينسى فيها الفخر بنفسه كما كانوا لا ينسون أنفسهم .

ونحن لا نعتبره مقلدا صرفا لسببين : أولهما : الإجادة فى أغراضه ومطابقتها لواقع الحياة . وثانيهما : أن نفسه — لما فيها من استعداد روائى ، ولما يحيط بها من أجواء دافقة — أشربت أساليب هؤلاء الشعراء حتى صارت طريقة البارودى أشبه بمشاعر الجاهليين المنبعثة من النفس بلا قصد ممجوج وتكلف ممقوت

ومن هنا نقضى بما قضى به المنهج العلمى : أن البارودى بعث الشعر الجاهلى من رقدته وإن لم يجدد فيه .

فماذا فعل شوقى ؟

حين تقرأ لشوقى تحس أن التجديد قد بدا واضحا فى شعره ، ذلك لأنه استطاع أن يتحلل من قيود الشعر الجاهلى ومن تقاليده العتيقة فهو لا يبدأ القصيدة بالغزل كما بدأ القدماء وفعل البارودى ، وهو لا يجعل الفخر منتهى همه ومبلغ مزاجه الأدبى كما فعل أسلافه ، بل يضرب بإجادته فى أطباق الشعر جميعاً وهو فى ذلك فضلا عن تحرره مبتدع ، أمين على أساليب الشعر : فهو يسير فى « وحدة القصيدة » على طريقة قويمة — يرتضيها المحدثون — فلا يقسم القصيدة أجزاء مفككة لا تآلف بينها ، وتستطيع أن تلمس ذلك فى وصفه « لحادث دنشواى »